

## خطبة بعنوان: دروس وعبر من تحويل القبلة

١٥ شعبان ١٤٣٨ هـ - ١٢ مايو ٢٠١٧ م

### عناصر الخطبة:

الدرس الأول: وسطية الأمة وشهادتها على جميع الأمم

الدرس الثاني: التسليم والانقياد المطلق

الدرس الثالث: وحدة القبلة ووحدة الأمة الإسلامية

الدرس الرابع: الابتلاء والامتحان والاختبار

الدرس الخامس: حرص المؤمن على أخيه وحب الخير له

الدرس السادس: تحويل حالنا مع الله

### أما بعد:

### المقدمة:

عباد الله: تعالوا معنا لنقف مع حضارتكم حول الدروس المستفادة من حادث تحويل القبلة؛ وفي الحقيقة هناك دروس كثيرة ولكني اقتصرتها منها على الدروس التي تمس واقعنا المعاصر والتي نحن في أشد الحاجة إليها ولا سيما في هذه الظروف الراهنة !!

الدرس الأول: وسطية الأمة وشهادتها على جميع الأمم

هذا الدرس يتمثل في قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣]. وهنا إعجاز عددي في هذه الآية الكريمة، فعدد آيات سورة البقرة ٢٨٦ ÷ ٢ = ١٤٣، هذا هو رقم هذه الآية، فكأن الآية نفسها جاءت وسطاً، وكفى بها رسالة للأمة لتكون وسطاً في كل شيء. والوسطية هنا تعني الأفضلية والخيرية والرفعة؛ فالأمة وسط في كل شيء، ووسطية شاملة.. فهي وسط في الاعتقاد والتصور، وسط في العلاقات والارتباطات، وسط في أنظمتها ونظمها وتشريعاتها، وحرري بالمسلمين أن يعودوا إلى وسطيتهم التي شرفهم الله بها من أول يوم.. نعم، أمة وسطاً: بجانب للغلو والتقصير، لم تغل غلو النصراري في أنبيائهم ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم، وقد رُي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : "خير الأمور أوسطها"، وقال علي - رضي الله عنه - : "عليكم بالوسط الأوسط فالإله ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل" .. فحرري بمن تشددوا في الدين أن يعودوا إلى وسطية الإسلام. وحرري بمن كَفَرُوا المسلمين وفسَقُوا المصلحين أن ينهلوا من وسطية الإسلام.

إن هذه الوسطية أهلت هذه الأمة ومنحتها الشهادة على جميع الأمم، وهذه الشهادة قسمان: شهادة على نفسها في الدنيا، وشهادة على غيرها في الآخرة. فشهادتها على نفسها في الدنيا: أن يشهد بعضهم على بعض، فعن أنس بن مالك قال: "مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ، وَمَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَ عَلَيْهَا شَرًّا. فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ. قَالَ عُمَرُ: فَدَى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتُ وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ، وَمَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتُ وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ!!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَنْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَنْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ" (متفق عليه واللفظ لمسلم)؛ فشهادة الأمة في الدنيا سبب في وجوب دخول الصالح الجنة والظالم النار. وعن عائشة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةَ كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شَفَعُوا فِيهِ" (مسلم) وفي رواية أخرى لمسلم عن كُرَيْبِ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقَدِيدٍ أَوْ بِعُسْفَانَ فَقَالَ يَا كُرَيْبُ انظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَاسٌ قَدْ اجْتَمَعُوا لَهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَزْبَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: أَخْرِجُوهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى

جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ" ، وَعَنْ مَالِكِ بْنِ هُبَيْرَةَ قَالَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ صُفُوفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ " قَالَ فَكَانَ مَالِكٌ إِذَا اسْتَقْبَلَ أَهْلَ الْجَنَازَةِ جَزَأَهُمْ ثَلَاثَةَ صُفُوفٍ لِلْحَدِيثِ . (أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه) ، لذلك استحَب العلماء تكثير الصفوف بحيث لا تقل عن ثلاثة ، فلو كانوا ستة جعلنا في كل صف رجلين .

كما أن شهادة الجيران للميت شفاة ، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأذنين أنهم لا يعلمون إلا خيراً ؛ إلا قال الله : قد قبلت علمكم فيه ، وغفرت له ما لا تعلمون . " [ أحمد والبيهقي والحاكم وصححه ] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصِدْقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصِدْقَتِهَا وَصَلَاتِهَا ، وَأَنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَنْوَارِ مِنَ الْأَقْطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ؟ قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ . [ أحمد وابن حبان والحاكم وصححه ] . على أن عدد الشهود لا يقل عن اثنين ، فعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فُلْنَا وَثَلَاثَةٌ ؟ قَالَ : وَثَلَاثَةٌ قُلْتُ : وَاثْنَانِ ؟ قَالَ : وَاثْنَانِ ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنْ الْوَاحِدِ ( البخاري ) ، فأى امرئ شهد له أربعة من المؤمنين بالخير أو ثلاثة أو اثنان ، فإن الله عز وجل يدخله الجنة ، أما الواحد فلم يسألوه عنه ؛ لأنهم أدركوا أنه إذا لم تقبل شهادة الواحد في أمور الدنيا ، في التجارات والبيع والشراء ، في الأراضي ، فكيف تقبل شهادة الواحد على صلاح الإنسان ، ليكون أهلاً لدخول الجنة ؟! ولهذا لم يسألوه صلى الله عليه وسلم عن الواحد . لكن لا ينبغي أن نقطع لإنسان أنه من أهل الجنة ، ولا نقطع لآخر أنه من أهل النار ، بل إنك تعطي شهادتك وتفوض الأمر لله ، فَعَنْ جُنْدَبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ : " أَنَّ رَجُلًا قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟!! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ (مسلم) ، وقد وقع كثير من العوام في هذا الخطأ الجسيم فيقولون : ( فلان مش هيرود على جنة ، وفلان هيرود النار حذف !!! ) وكان معهم مفاتيح الجنة والنار يدخلون من شاءوا ويحجبون من شاءوا !!!

أما شهادة هذه الأمة في الآخرة فتكون على الأمم السابقة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَلَغْتَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ نَعَمْ ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ : هَلْ بَلَغْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيُقَالُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ ، قَالَ : فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ ، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ سِوَةِ الْبَقَرَةِ آيَةَ ١٤٣ ، قَالَ : وَالْوَسَطُ : الْعَدْلُ " ( البخاري ) فأمة محمد تشهد لنوح وغيره بأنهم بلغوا ونصحوا بموجب ما جاء في القرآن كما صرحت بذلك روايات أخرى للحديث .

أحبتني في الله: هذه رسالة لكل فرد من أفراد المجتمع أن يحسن خلقه ومعاملته مع أهله وجيرانه وأحبابه وأصدقائه وبني جنسه ليشهدوا له بصلاحه وتقواه في وقت هو أحوج إلى جنة ومغفرة مولاه . وليعلم كل منا أن ذلك بالعمل وليس بالوصية ، فلا تنفعك وصيتك للناس ليشهدوا لك بصلاحك عند وفاتك ، كشهادة اثنين من الموظفين لك بحسن سيرك وسلوكك لتسلم عملك !!! ، ولكن ما جنته طوال عمرك من أخلاق ومعاملة ستحصده عند وفاتك ، وهذا يحتاج إلى وقت طويل ليترك أثراً أطول ، كما قال حكيم : السيرة الحسنة كشجرة الزيتون لا تنمو سريعاً ولكنها تعيش طويلاً ، لأنك تموت بجسدك وروحك وتظل ذكراك باقية ، وأترك يدرك لك حسنات .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : قد مات قوم وما مات فضائلهم ..... وعاش قوم وهم في الناس أموات وقال أحمد شوقي :

دَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ : إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِي

وقال آخر : كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الشئ فإنه لك باقي

ولو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

فانظر إلى نفسك هل أفدتها؟! هل أفدت مجتمعك؟! هل تركت أثراً صالحاً تذكر به؟! فلنسارع جميعاً قبل أن نندم ولا ينفع الندم .

فلمسلم عبد الله تعالى، يسلم بأحكامه وينقاد لأوامره بكل حب ورضا، ويستجيب لذلك، ويسارع للامتثال بكل ما أوتي من قوة وجهد، فأصل الإسلام التسليم، وخلاصة الإيمان الانقياد، وأساس المحبة الطاعة، لذا كان عنوان صدق المسلم وقوة إيمانه هو فعل ما أمر الله والاستجابة لحكمه، والامتثال لأمره في جميع الأحوال، لا يوقفه عن الامتثال والطاعة معرفة الحكمة واقتناعه بها، لأنه يعلم علم اليقين، أنه ما أمره الله تعالى بأمر ولا نهاه عن شيء، إلا كان في مصلحته سواء علم ذلك أو لم يعلمه. كما قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } (الأحزاب: ٣٦) هذه الطاعة، وذلك التسليم، الذي أقسم الله تعالى بنفسه على نفي الإيمان عمن لا يملكه في قوله تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: ٦٥].

والصحابية الكرام. رضي الله عنهم. في أمر تحويل القبلة، أمرهم رسول الله. صلى الله عليه وسلم. بالتوجه في صلاتهم ناحية المسجد الأقصى فتوجهوا وانقادوا، ولبثوا على ذلك مدة سنة وبضعة شهور، فلما أمروا بالتوجه ناحية المسجد الحرام سارعوا وامتلأوا، بل إن بعضهم لما علم بتحويل القبلة وهم في صلاتهم، تحولوا وتوجهوا وهم ركوع إلى القبلة الجديدة، ولم ينتظروا حتى يكملوا صلاتهم.

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "بَيْنَمَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ؛ إِذْ جَاءَ جَاءٍ فَقَالَ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْآنًا أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا؛ فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ" (متفق عليه). لقد تحولوا وهم في هيئة الركوع من قبلة بيت المقدس إلى اتجاه البيت الحرام.. لقد علمونا. رضي الله عنهم. كيف نستقبل أوامر وتعاليم الإسلام.. بهذه الثقة في النهج، وبهذه الثقة في القائد، قادوا وسادوا وساسوا الدنيا.. يا قوم: فما بالناس حينئذ أوامر الإسلام وتعاليم القرآن، وشكنا في أحكام الشريعة.. وتنسنا فساء الغرب، ونقبتنا في مزايل الغي والضلال.. إلى متى هذه الجفوة والفجوة بين المسلمين ومنهجهم؟ وإلى متى نستجيب إلى كل أشباه الحلول، ونرفض الحل الإسلامي؟! إذا كان هؤلاء تحولوا وهم ركوع فأين تحولك الآن؟! وأين استجابتك لأوامر الرحمن!!!

وحيث إن آيات تحويل القبلة تتحدث عن الانقياد للمؤمنين وسفاهة اليهود وعصيانهم، فسأعقد لك مقارنة بين الفريقين في أمر الطاعة والانقياد، قال تعالى عن المؤمنين: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (النور: ٥١)، وفي المقابل عصيان اليهود: { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } (النساء: ٤٦)

وهذا مثال آخر: "أتى النبي خير قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون" ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به." (سيرة ابن هشام).

وفي المقابل أمر موسى بني إسرائيل بدخول بيت المقدس ف { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (المائدة: ٢٤).

فلتكن دائم الاستجابة والانقياد والخضوع لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الصحابة من أول نداء قالوا سمعنا وأطعنا؛ ونداءات القرآن والسنة معنا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً!! ومع ذلك سمعنا وما أطعنا!!

فنحن نسمع نداءات النهي عن الربا والزنا والخمر والقتل والتخريب والتفجير والتكفير وجميع المنكرات؛ فهل استجبنا لهذه النداءات؟!!

المسلمون في الشرق والغرب يتجهون في الصلوات الخمس اليومية، وفي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، رغم اختلاف الألسنة والجنسيات والألوان، يجمعهم الدين الإسلامي الحنيف، وهذا ليعلم المسلم أنه لئبنة في بناء كبير واحد مرصوص، وفي الحديث: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (متفق عليه).

فالمسلمون يتعلمون من وحدة القبلة، وحدة الأمة في الهدف والغاية، وأن الوحدة والاتحاد ضرورة في كل شؤون حياتهم الدينية والدنيوية. وهذا الذي حمل اليهود على حقدهم وحسدهم للوحدة الإسلامية في بلادنا، وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم بذلك حيث قال: "إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ هَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ هَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ أَمِينَ " ( أحمد بسند حسن).

وتدبرت في هذه الثلاث فوجدت العلة واحدة وهي ( الوحدة والاجتماع في كل ) وهذا بلا شك يغضبهم ويحزنهم ويسوءهم. وهذا ما سلكه اليهود مع الرسول في المدينة، حيث جمع الله به شتات المؤمنين، ووحدهم بعد تفرقهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ( آل عمران : ١٠٣ )

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : "أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بملاً من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بُعثت وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجعل يُسكِّنهم ويقول: "أَبَدَعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟" وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم". أ.هـ.

وفي العصر الحديث صرحوا بهذا الحقد والحسد على وحدة المسلمين واجتماعهم في كتبهم واجتماعاتهم ومؤتمراتهم، ففي بروتوكولات (حكماء صهيون) قالوا: إننا لن نستطيع التغلب على المسلمين ماداموا متحدين دولاً وشعوباً تحت حكم خليفة واحد ، فلا بد من إسقاط الخلافة و تقسيم الدولة الإسلامية إلى دويلات ضعيفة لا تستطيع الوقوف في وجهنا فيسهل علينا استعمارها .

ويقول لورانس براون : "إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذٍ بلا وزن ولا تأثير".

لذلك أراد حكيم أن يعطى أولاده درساً في ليلة من ليالي الشتاء الباردة حين أحس بقرب أجله ، فاجتمع أولاده حول سريره ، وأراد أن يوصيهم بوصية تنفعهم قبل وفاته ، فطلب منهم أن يحضروا حزمة من الحطب ، وطلب من كل واحد منهم أن يكسر الحزمة ، فلم يستطع أي واحد منهم أن يكسرها ، أخذ الحكيم الحزمة ، وفرقها أعوداً ، وأعطى كل واحد من أبنائه عوداً ، وطلب منهم كسر الأعود وهي متفرقة ، فكسر كل واحد منهم عوده بسهولة . فقال الأب الذي هو الحكيم : يا أبنائي إياكم والتفرقة ، كونوا كهذه الحزمة متحدين ، حتى لا يقدر عدو على هزيمتكم .

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى..... خطب ولا تفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً.....وإذا افترقن تكسرت أفرادا

ألا فلنحتد جميعاً من أجل بناء مجتمعا، من أجل بناء وطننا، من أجل بناء مصرنا، من أجل بناء حضارتنا، بعيدين عن التفرقة، عن التشرذم ، عن التحزب، عن الشتت، حتى نحقق آمالنا، ويعلو ببياننا ، ونبلغ منانا، فنكون جميعاً أدوات بناء لا أدوات هدم!!

ومتى يبلغ البيان يوماً تاماه.....إذا كنت تبني وغيرك يهدم!!!

وهذا الدرس يتمثل في قوله تعالى: { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ وَعَقِبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } يقول ابن كثير - رحمه الله: "يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي: مُرْتَدًّا عن دينه { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً } أي: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحق الذي لا مزية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً". هـ

فتحويل القبلة جلياً وأظهر الإيمان في نفوس المؤمنين، والنفاق والشرك في نفوس أهله. فالمؤمنون قالوا: سمعنا وأطعنا؛ كل من عند ربنا، أما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء، ولو كان نبيا لاستمر على قبلته، وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتجه في صلاته، إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية حقا فقد كان على الباطل. { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } (الكهف: ٥).  
**عباد الله:** إن الله - عز وجل - حينما يأمرنا بأمر؛ أو ينهانا عن شيء فإن ذلك اختبار وامتحان لنا؛ وكل ما يمر بنا في هذه الدنيا من مصائب ونوائب وبلاء فإنما هو اختبار وامتحان؛ يقول الدكتور محمد خليل هراس: " اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث على الناس في عهد النبوة بين الحين والحين ريح فتنة يبتلى بها ما في النفوس؛ ليظهر الصادق في إيمانه، والتي لا تزلزله الفتنة، ولا تنال منه الزعازع، من المنافق الذي لا يلبث أن يكشف ما في نفسه من ظلمات الشكوك، وعوامل الهزيمة، فيذوب في الفتنة كما يذوب الملح في الماء، ولقد كان حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام إحدى هذه الابتلاءات الكبرى التي أراد الله تعالى بها هز المجتمع الإسلامي لتسقط عن شجرته المباركة الأوراق اليابسة، والثمرات العفنة، ولا يبقى إلا القوى الجيد الذي له من صلاحية الإيمان، وقوة اليقين، ونور البصيرة ما يرد عنه مضلات الفتنة، وينجيه من بوائقها." (تحويل القبلة؛ مقال بمجلة التوحيد؛ شعبان: ٤١٥هـ).

**أحبتني في الله:** إن العلاقة التي تربط الإنسان بالحياة الدنيا في التصور الإسلامي، هي علاقة ابتلاء؛ أي: اختبار وامتحان، وهي تعني اختبار طاعة الإنسان لله - عز وجل - وأتباع تعاليمه في جميع شؤون الحياة، وهذا الابتلاء هو المظهر العملي لعلاقة العبودية بين الله تعالى والإنسان، وعمر الإنسان هو الزمن المقرر لهذا الابتلاء؛ { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك: ٢].

فالأرض هي قاعة الامتحان التي يجري فيها هذا الابتلاء، أما مواد الابتلاء، فهي جميع ما على وجه الأرض؛ المال فيها امتحان، والزوجة والأولاد امتحان، والغنى والفقر امتحان، والصحة والمرض امتحان، والقوة والضعف امتحان، وكلنا مُمتحن في كل ما نملك، وفي كل ما يعترينا في هذه الحياة، حتى نلقى الله؛ { وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء: ٣٥].

والموت هو نهاية مدة الابتلاء، والبعث والحساب هما فترت نتائج الابتلاء، وتصنيف الناجحين والفاشلين، والمآل إلى الجنة أو النار هما الثمرة العملية لهذا الابتلاء.

وهكذا، فإن نقطة الابتلاء في حياة الإنسان هي هذه الزينة الموجودة في الأرض، هل يتناول منها القدر الذي أباحه الله وأحلَّه، أم يتهب ما حرم الله ولا يلتزم بطاعته؟!

**أبها المسلمون:** عندما غابت هذه الحقيقة عن أذهان أكثر الناس، انشغلوا بهذه الحياة الدنيا، فأصبحت تنتهي أملهم، ومبلغ علمهم، وغاية طموحاتهم، تراهم يتخبطن بين أمواجها، يتنافسون على شهواتها وملذاتها، يتسابقون على جمع حطامها الزائل، يسكرون من كأس شراها. من أجل متاعها، يخون الناس الأمانات، ويتكثون العهود، ويحقدون الحقوق، وينسون الواجبات.

من أجل متاعها، يفترس القوي الضعيف، ويلتهم الكبير الصغير، ويعيشون كسباع الغابة، أو أسماك البحار. من أجل متاعها، يغش التجار ويُطْفَنون، ويطغى الأغنياء ويترفون، ويتجبر أصحاب الجاه والمناصب ويستعلون، ونُسُوا في غمرة سكرتهم أن كل هذه الزينة التي يتقاتلون من أجلها، ستُصبح فانية مُضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جُرُزًا، قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها؛ وكل ما فعلوه مسطور ومكتوب؛ وفي الآخرة تعرض أوراق الاختبار والامتحان على علام الغيوب !!!

### الدرس الخامس: حرص المؤمن على أخيه وحب الخير له

**عباد الله:** إننا نلمح هذا الدرس المملوء بالحب والوفاء والإخلاص المتبادل بين الصحابة الكرام وحرص كل منهم على الآخر؛ وذلك من خلال سؤال الصحابة عن مصير صلاة إخوانهم الذين ماتوا وقد صلُّوا نحو بيت المقدس فأخبر الله - عز وجل - أن صلاتهم مقبولة. فعن ابن عباس قال: "لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْخُوانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ } الآية. (الترمذي وصححه)؛ يقول الإمام البغوي: " { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ } وذلك أن حبي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس، إن كانت هدى فقد تحولت عنها وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها، ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟! وكان قد مات قبل أن تحول القبلة من المسلمين أسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن معرور من بني سلمة، وكانوا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟! فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ } يعني صلاتكم إلى بيت المقدس. (تفسير البغوي)؛ وقال الإمام السعدي: " ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله، امتثال أمره في كل وقت، بحسب ذلك. " **أحبتني في الله:** إن سلفنا الصالح كانوا قدوة ومثالاً للحب والإيثار؛ ولو كان بهم حاجة أو خصاصة؛ وشواهد ذلك كثيرة: فعن أنس قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهوداً، فوجه به إلى جاره، فوجه به الجار إلى أهل بيت آخر، فتداولته سبعة أبيات حتى عاد إلى الأول، فنزلت: { وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ.... } الآية. وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعني شيء من الماء وأنا أقول: إن كان به رفق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى فقلت له: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فإذا رجل يقول: آه! فأشار إليّ ابن عمي أن أُنطق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت له: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه! فأشار هشام أن أُنطق إليه، فحنته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فوجدته قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي فوجدته قد مات. ("سراج الملوك للطرطوشي)؛ وما أجمل قول الشاعر في حب الخير للغير :

أود الخير للعالم جميعاً..... وإن أك بين أهلها غريباً

إذا ما نعمة وافت لغيري..... شكرت كأن لي فيها نصيباً

تفيض جوانحي بالحب حتى..... أظن الناس كلهمو حبيباً

**أيها المسلمون:** كثيرٌ منا - للأسف - يظن أن حب الخير لأخيه المسلم لا علاقة له بالإيمان؛ وأن الإنسان لا يحاسب علي ما يكتنه الأخ لأخيه من حب أو بغض؛ أو حقد وغل وحسد أو سلامة صدر؛ سلباً أو إيجاباً؛ كلا؛ إنك لو نظرت إلى الشريعة الغراء لوجدت أن حب الخير للغير شعبة من شعب الإيمان كبقية العبادات من صلاة وصيام وحج وغيرها؛ وقد نفى النبي العدنان كمال الإيمان عمَّن لم يرتق إلى درجة حب الخير لأخيه ما يجبه لنفسه؛ فعن أنس؛ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (متفق عليه)؛ " قال العلماء رحمهم الله : معناه لا يؤمن الإيمان التام ، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة . والمراد يجب لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات؛ ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي في هذا الحديث " حتى يجب لأخيه من الخير ما يجب

